ذكريات مؤلمة خلقت تجربة سعيدة

ر . هـ .

أمن العدل أن توضع علامة أعلى لطالب غير موهوب فنياً من طالب موهوب فنياً لمجرد أن الأول هو الأول على صفه أكاديمياً؟ أمن العدل ألا يفي معلم التربية الفنية بوعوده، ويرمي بها في سلة المهملات بعض إنجاز أهدافه وغاياته؟

أجل، كان هذا العدل قبل عشر سنوات تقريباً، كنت وقتها في الصف الحادي عشر، لا أكتب عن نفسي هنا من قبيل المديح، ولكن طالما حلمت أن أتحدث عن هذه القصة وأفرغها دون خوف، وها أنا أحاول ذلك الآن.

كنت فتاة موهوبة في جميع الأعمال الفنية من رسم، وتمثيل، ودراما، وإلقاء شعر وكتابته، وكتابة القصة القصيرة، والأعمال اليدوية؛ كالتطريز، وتشكيل الأواني من الجبص والفخار، ونسج الأطباق من القش، وأشياء أخرى متعددة. ولعل وجودي في مدرسة تقع في المدينة لفت نظر معلمة التربية الفنية إلى مهارتي في تطريز القطع، لهذا السبب قامت بإعفائي من جميع الأعمال الفنية المطلوبة من طالبات صفي، مقابل قيامي بتطريز بعض القطع لوضعها في المعرض الفني الذي سيقام في نهاية العام؟

كنت أقبل ذلك دون تردد، لأن الطالبة التي لا تستمع لكلام المعلمة هي طالبة غير مؤدبة- هكذا كنت أسمع- كما أنها شجعتني قائلة "أنت فنانة، وتستطيعين صنع أي شيء، وبدلاً من القيام بهذه الأشغال قومي بتطريز بعض القطع للمعرض الذي سيقام في نهاية العام، وسأضع لك أعلى من 96، لذلك تشجعت كثيراً وقبلت دون تردد.

وفعلاً أحضرت لي العديد من القطع، وما أن أنتهي من واحدة حتى أبدأ بالثانية، أما أبي فلم يكن يعجبه هذا الحال، وكان دائماً يقول لي من شفقته عليّ وأنا أجهد نفسي "خليها تضحك عليك، وما ينوبك إلا عمى عينيك، وتراجعك في المدرسة". لم أقتنع بهذا الكلام، وكي لا أغضبه كنت أقوم بالتطريز في أثناء غيابه، فيا ليتني اقتنعت بكلامه حتى لا أحرج نفسي في الحديث عن معلمة كان لها فضل عليّ، على الرغم مما سببته لي من ألم. اعتقدت وقتها أنه لا يمكن للمعلمات أن يقلن إلا ما يعتقدن.

مرت الشهور وجاء موعد المعرض، ووضعت لوحاتي المطرزة، وعليها بطاقة كتب عليها اسمي، وجلست على طاولة في صالة العرض، ووضع أمامي أطباق من القش، وطبق غير جاهز أقوم بصناعته كي يشاهدني الزوار، شعرت بالفرحة وقتها، فالكثير من الشخصيات "المهمة" كانت تأتي إليَّ وتبدي إعجابها بالعمل الذي أقوم به.

وما زلت أذكر عندما جاء وفد من التربية والتعليم، كيف عم النظام والانضباط، وكيف تصنعت المعلمات الأقوال والمجاملات، وكيف عرفت عليّ معلمتي قائلة "هذه الطالبة . . . . . ماهرة في صناعة أطباق القش"، هذه الكلمات جعلتني أطير من الفرح وقتها، ولم أكن أعرف أني سوف أقع عما قريب.

وانتهى ذلك اليوم والذي يليه، وقارب العام الدراسي على الانتهاء، وفعلاً قدمنا الامتحانات النهائية وبدأت العطلة، وحدد موعد استلام حصاد العام، وانتظرت ذلك الموعد بفارغ الصبر. يومها لبست ثيابي وذهبت إلى المدرسة برفقة زميلاتي من القرية، وبدأت نبضات قلبي تتسارع وكأنها تريد أن تسبقني إلى المدرسة لاستلام النتيجة.

وهناك بدأت الحياة تظهر إمامي على حقيقتها، أو بالأحرى بدأت أفهم الحياة بشكل أفضل، استلمت نبأ وفاة الصدق والوفاء بالوعد، لماذا؟ لأنها لم تضع لي أعلى علامة كما وعدتني، بل وضعت 90% وكأنها اقتطعتها لي من رصيد حسابها، فخافت أن يعلن إفلاسه وينكشف الرصيد، المهم، كان هناك بعد البحث والتفتيش سبع طالبات أو أكثر حصلن على معدلات أعلى من معدلي، مع أنهن لم يقمن بما قمت بها.

وعلى الفور أخذت "الورقة" ولن اسميها شهادة، لأنها لم تشهد على علامتي الحقيقة، وذهبت إليها، رأتني فضحكت في وجهي ظناً منها أنها ستمنعني عن العتاب واللوم، ولكن هيهاتّ! ابتسمت لها رداً لابتسامتها وسألتها: لماذا وضعتي لي هذه العلامة؟

- ما بالها؟ هات أرى؟ إنها تسعين، ممتازة.
- ولكن أنت وعدتني أن تضعي لي أعلى علامة.
- صحيح، ولكن أنظري إلى علاماتك، فكلها في الثمانين، والفن أعلى علامة، وهي متناسبة مع باقي المواد.

احتقنت دموعي وأكملت حديثي: ولكنك وضعتي لـ "س" من الطالبات 95 و96 وحتى 97 مع أنهن لم يقمن بما قمت به.

ردت عليَّ ولو أنها لم ترد لكان أفضل، قالت لي "هؤلاء الطالبات كل معدلاتهن مرتفعة أكثر من 92، وحرام علي أن أضع لهن علامة الفن منخفضة، لأنها ستؤثر على معدلهن وعلى ترتيبهن في الصف".

سمعت هذا الكلام وشعرت بشيء ما يضغط علي يريد خنقي، وكأنها الدموع التي حبستها أرادت أن تثأر مني لعدم سماحي لها بالخروج.

وبسرعة كي لا أدعها تسعد برؤية دموعي خرجت من أمامها، وما أن وصلت إلى مكان خال حتى بدأت بالبكاء، يا إلهي! ما أمر تلك الدموع، طعمها لا يزال على لساني إلى اليوم، فما أصعب أن يشعر الإنسان بالظلم، ويكون القاضي هو الظالم نفسه، وقتها أحسست أن الله أراد أن يحاسبني لأني أخفيت عن والدي استمراري في عملية التطريز، ودفعت ثمن غلطتي هذه وكان غالياً.

هكذا انتهت وعود تلك المعلمة، وأطاحت بفرحتي في بحر من اليأس، وانتهى وقتها على الأقل احترامي لها، وأصبحت أكره كل المعلمات اللواتي يعدن الطالبات بأشياء لتحقيق مآرب ما، ويرتفع تقديرهن في التقارير الذاهبة إلى الوزارة، وماذا يدفعن؟ وعود كاذبة سرعان ما تغرق، فكم من الطلبة ظلموا في علامة التربية الفنية، والسبب ضعف تحصيلهم في المواد الأخرى.

مرت الأيام والشهور والسنون وكبرنا واتسع وعيي للحياة، وشاءت الأقدار أن أصبح مدرسة تربية ابتدائية، وعندما توظفت كان علي تدريس التربية الفنية، وقتها طلبت من الله العون كي لا أظلم أحداً من الطلاب، ولعلٍ من شجعتني على ذلك وساعدني مدير المدرسة، حيث طلب منا جميعاً أن نضع للطلاب العلامة التي يستحقونها مهما كانت، وبخاصة التربية الفنية والرياضية؛ لأن من حق الطالب أن توضع له العلامة الصادقة في هذه الهوايات.

وما زلت حتى الآن أذكر كلمات المدير: "لا تظلموا الطالب". كنت اعتقد أن الظلم يكون إذا وضعنا للطالب علامة أقل مما يستحق، ولكن المدير صحح اعتقادي قائلاً أن الظلم يكون أيضاً إذا أخذ الطالب علامة أكثر مما يستحق، لأنه في أحد الأيام سيعرف حقيقة قدراته، ويشعر وقتها أن المعلم خدعه.

ومن أجل إحقاق هذا العدل المنشود والهروب من الظلم، وبخاصة في مادة التربية الفنية، قمت بخطوات عدة:

قسمت علامات التربية الفنية إلى أربع مجموعات كالتالي:

- 20% على إحضار المواد والأدوات.
- 20% للمشاركة في الحصص.
- 10% للتعبير اللفظي عن الأعمال الفنية.
- 50% على العمل نفسه.

وكي أضع العلامة الأخيرة بالحق، وحتى تكون مفاضلتي بين الأعمال الفنية صحيحة، قمت بالخطوة الثانية وهي صحيفة الرصد والمتابعة التي اشتملت على المعايير التي سيتم بناءً عليها تقييم العمل الفني، وهذه المعايير معروفة طبعاً لدى الطلاب (انظر الملحق المرفق).

والخطوة الثالثة كانت إعادة دراسة منهاج التربية الفنية، لأنه يحتوي على بعض الأنشطة الصعبة التنفيذ، إما لأنها أعلى من مستوى الطلبة وإما لأنها مكلفة مادياً وأدواتها وموادها غير متوافرة في البيئة المدرسية.

وهكذا نجحت في هذه التجربة، وقد لقيت استحساناً من قبل موجه التربية الفنية، أما بالنسبة لي فقد شعرت بالسعادة لأني استطعت أن أنجح في محاولة محو الذكريات المؤلمة السابقة، ففي كل حصة تربية فنية كنت أرى ابتسامات طلابي التي تعبر عن مدى حبهم ورضاهم عن حصة الفن، كنت أشعر أني رددت جزءاً ولو قليلاً من العدل الذي سلب مني وأنا طالبة.

ملحق لصحيفة الرصد والمتابعة

■ قياس مهارة الطالبة في موضوع .....

الرقم	اسم الطالبة	اختيار الألوان المناسبة	مراعاة توزيع المساحات	إحضار المواد المطلوبة	مراعاة الدقة في العمل	المحافظة على النظافة والترتيب	جمال العمل الفني	التعاون مع الزملاء	مهارة استخدام الأدوات	مراعاة احتياطيات العمل	استخدام أفكار جديدة	المجموع
.1												
.2												
.3												
.4												
.5												

ر. هـ.